شوقية لم تنشر فى الديوان ...

للأستاذ عبد القادر رشيد الناصرى

يسرنى أن أقدم لقراء الرسالة الغراء فى كافة أقطار العروبة هذه القريدة العصماء للخالد الذكر المرحوم أحمد شوقى بك أمير شعراء الضاد بمناسبة قضايا مصر الأخيرة المتعلقة ببريطانيا، والتى نسج بردتها الشاعر فى ذكرى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ وعنونها بـ « جهاد مصر الوطنى » وقد عثرت عليها وأنا أنقب فى أوراق قديمة لى كنت أحتفظ بها ضمن مجموعة من المجلات العربية . وكانت هذه الرائعة منطوية بين دفتى مجلة « الزهراء » التى كان يصدرها فى القاهرة آنذاك الأستاذ محب الدين الخطيب، ويرجع تاريخ العدد من المجلة نفسها إلى سنة ١٩٢٦ م أو ١٣٤٥ هـ وقد راجعت الشوقيات بأجزائها الأربعة فلم أعثر عليها فعجبت كيف غفل أميرنا عن درجها فى الجزء الأول والثانى من شوقياته وقد طبعها فى حياته . وإذا كان المرحوم قد سها عنها فكيف غربت عن بال أنجاله عندما أعدوا الجزء الرابع من شوقياته للطبع ؟ هذا سؤال أود أن أوجهه إلى الأستاذ على شوقى وزير مصر المفوض فى فرنسا حاليا لعل هناك سببا أجهله أنا

أما من ناحية القصيدة فهى له بلا ريب لأنها لا تختلف عن شعره من ناحية إشراق الديباجة ومتانة السبك وفخامة المعنى ، وسلاسة الطبع . . وخصوصا استشهاده بوقائع من التاريخ الإسلامى وإشارته إلى حالات خاصة به . وسيطلع عليها القراء ضمن القصيدة ... هذا إلى أننى أود أن أنبه الكرام من قراء الرسالة الزاهرة إلى أن بعض الأدباء وأنصاف المتأدبين من العراقيين ينحرفون فى كثير من الأحيان وراء عواطفهم وعصبيتهم الإقليمية ؛ فيدعون بأفضلية شعر المرحوم معروف الرصافى على شوقى ، متأثرين بما يلقنهم الجهلة من أساتذة الأدب العربى فى مدارس العراق الرسمية . وأنا لا أعرف كيف يسوغ لهؤلاء الأساتذة الذين يفخرون بأنهم من حملة الشهادات العالية أن يقارنوا الرصافى بشوقى، وفى أى الحدود والموازين ، وماهو وجه التفاضل بينهما، فإلى هؤلاء جميعا أقول إن شوقى قمة شامخة من قمم الشعر العربى الأصيل ، لا يرقى إليها حتى أبو الطيب المتنبى . أما الرصافى كما قال المرى عندما قرئ عليه شعر ابن هانئ الأندلسى « رحمى تطحن قرونا » إذ أن أكثر شعره رحمه الله خطابى يعتمد على فخامة اللفظ وإيقاع الجرس حتى لترى فى كثير من شعره الخلو من المعنى ، وخصوصا فى قصائده التى كان يلقيها فى الحفلات التى يدعى إليها ، لأنه كان يعتمد على التأثير على السامعين بالألفاظ لا بالمعانى ، وبعبارة أخرى خلو شعره من الفن الصادق الذى يتسم به شعر شوقى . وقد يقول قائل إننى بهذه الكلمة أتجنى على المرحوم الرصافى وأنا عراقى؟ ولكنى أقول إن هذا هو الحقيقة ، لأننى لا زلت من أشد المعجبين حماسة بوطنيته وإبائه ، وقد نوهت عن ذلك فى سلسلة مقالات نشرتها فى مجلة الحديث الحلبية قبل سنتين ، كما قلت فى رثائه من قصيدة طويلة :

فدعوا القريض لأهله فميدده ... معروف غادر عرشه محزونا
الشاعر الحر الذى بيراعه ... راع «الملوك» وروع «الطاغينا»

فأنا الآن إذن لا أتحامل ولكنى أقرر الواقع، وهاهى قصيدة شوقى الخالدة، ورغم أنها نظمت سنة ١٩١٨ م فهل يستطيع أن ينظم شاعر مهما دان له البيان مثلها ؟!

خطونا فى الجهاد خطى فساحا ... وهادنا ولم نلق السلاحا
رضينا فى هوى الوطن الفدى ... دم الشهداء والمال المطاحا
ولما سلت البيض المواضى ... تقلدنا لها الحق الصراحا
فطمنا الشكيم سوى بقايا ... إذا عضت أربناها الجاحا (١)
وقمنا فى شراع الحق نلقى ... وندفع عن جوانبه الرياحا
نعالج شدة ونروض أخرى ... ونسعى السعى مشروعاً مباحا
ونستولى على القسمات إلا ... كعين الغيب والقدر المتاحا
ومن يصبر يجد طول التمنى ... على الأيام قد صار اقتراحا

* * *

وأيام كأجواف الليالى ... فقدن النجم والقمر الليحا (٢)
قضيناها حيال الحرب نحشى ... بقاء الرق أو نرجو السراحا
تركن الناس بالوادى قعوداً ... من الإعياء كالإبل الزواحى

(١) جمع شكيمة حديدة اللجام
(٢) الفقى

جنود السلم لا ظفر جزاهم ... بما صبروا ولا موت أراحا
فلا تلق سوى حي كميت ... ومنزوف(٣) وإن لم يسق راحا
ترى أسرى وما شهدوا قتالا ... ولا اعتقلوا الأسنة والصفاحا
وجرحى السوط لا جرحى المواضي ... بما عمل الجواسيس اجتراحا(٤)

* * *

صباحك كان إقبالا وسعداً ... فيا يوم الرسالة عم صباحا
وما نألو نهارك ذكريات ... ولا برهان غرتك الباحا
تكاد حلاك في صفحات مصر ... بها التاريخ يفتتح افتتاحا
جلالك عن سنى الأضحى تجلى ... ونورك عن هلال الفطر لاحا
هما حق وأنت ملأت حقا ... ومثلت الضحية والسماحا
بعثنا فيك « هارونا » وموسى ... إلى فرعون فابتدرا الكفاحا
وكان أعز من روما سيوفاً ... وأطغى من قياصرها رماحا
يكاد من الفتوح وما سقته ... يخال وراء هيكله (فتاحا)
ورد المرسلون فقيل خابوا ... فيالك خيبة عادت نجاحا
أثارت وادياً من غابتيه ... ولامت فرقة وأست جراحا
وشدت من قوى قوم مراض ... عزائمهم فردتها صحاحا
كأن ، بلال نودى : قم فأذن ... فرج شعاب مكة والبطاحا
كأن الناس في دين جديد ... على جنباته استبقوا الصلاحا
وقد هانت حياتهم عليهم ... وكانوا بالحياة هم الشحاحا
فتسمع في مآتمهم غناء ... وتسمع في ولائمهم نواحا

* * *

حواريين أوفدنا ثقاة ... إذا ترك البلاغ لهم فصاحا
فكانوا الحق منقبضا حييا ... تحدى السيف منصلتا وقاحا
لهم منا براءة أهل بدر ... فلا إثماً تعد ولا جناحا
ترى الشحناء بينهم عتاباً ... وتحسب جدهم فيها مزاحا
جعلنا الخلد منزلهم ، وزدنا ... على الخلد الثناء والامتداحا

* * *

يميناً بالتي يسعى إليها ... غدوا بالندامة أو رواحا
وتعبق في أنوف الحج ركناً ... وتحت جباههم رحباً وساحا
وبالدستور وهو لنا حياة ... نرى فيه السلامة والفلاحا
أخذناه على المهج الغوالي ... ولم نأخذه نيلا مستباحا
بنينا فيه من دمع رواقا ... ومن دم كل نابتة جناحا
لما ملأ الشباب كروح سعد ... ولا جعل الحياة لهم طماحا
سلوا عنه القضية هل حماها ... وكان حمى القضية مستباحا
وهل نظم الكهول الصيد صفا ... وألف من نجاربهم رداحا
هو الشيخ الفتى لو استراحت ... من الدأب الكواكب ما استراحا
وليس بذائق النوم اغتباقاً ... إذا دار الرقاد ولا اصطباحا
فيالك ضيغما سهر الليالي ... وناضل دون غايته ولا حى
ولا حطمت لك الأيام نابا ... ولا قضت لك الدنيا صباحا

* * *

وبعد فهذه عصماء شوقي سقتها لتكون شاهداً على عبقريته ولتضم إلى مجموعة شوقياته ، وخصوصاً إلى عشاق شعره الذين لا يحتفظون بنسخة منها

وفي الختام أود أن أنبه أساتذة الأدب العربي في العراق وفي مدارسها التي تشرف عليها وزارة المعارف إلى أن لا يهرفوا مرة أخرى أمام طلابهم بأن الرصافي أشعر من شوقي ، خوف أن يأتي زمن تكون فيه سمرة المثقفين العرب . اللهم اشهد لقد بلغت

بغداد — أمانة العاصمة — عبد الغفور رشيد الناصري

(٣) — المنزوف : المخمور
(٤) — الاجتراح : الري بالعسر

ظهر المجلد الثالث
من كتاب
وحي الرسالة
فصول في الأدب والنقد والسياسة
والاجتماع والقصص
للأستاذ احمد حسن الزيات